تعريف بالكتاب

نشر ڤبلن كتابه عن «نظرية الطبقة الفارغة» قبيل انتهاء القرن التاسع عشر (١٨٩٩) ولم تنقطع المناقشة فى قضاياه العلمية حتى نهاية الربع الأولى من القرن العشرين ، ولا تزال هذه المناقشة تتجدد من حين الى حين حتى الساعة كلما ظهر خطأ من أخطاء المؤلف فى نبوءاته لأن الكتاب يهم المعاصرين بما يكشف عن أخطائه ، كما كان يهم أبناء جيله بما كشف لهم من جوانب الصواب فيه ، وتلك احدى مزايا هذا الكتاب بين الكتب من قبيله فى موضوعاته الاجتماعية · فهو صواب وخطأ ، وخطؤه يظهر للعيان كلما ظهر صوابه ، وقد يذكر الناس الآراء التى توافقه والآراء التى تنقضه ، فتنقذه المناقضة كما تنقذه الموافقة ، من الاهمال ·

ان خلاصة النظرية التى شرحها ڤبلن فى كتابه هى أن الطبقة الفارغة طبقة المليونيين الفارغين من مشقات العمل هى بقية للجماعات الساطية التى نشأت مع نشأة الحيازة بأنواعها ، وكانت أشبه شىء بمناسر البغاة النهابين الوهابين ممن اشتهروا فى التاريخ باغتصاب الأموال وانفاقها فيما لا حاجة اليه · ويقول المؤلف ان جمع الثروات الوافرة علامة ملازمة لهذه الطبقة تميزها بين سائر الطبقات الاجتماعية ، ولكنها علامة ناقصة لا تميزها بجميع خصائصها ، لأن المباهاة بالقدرة على الانفاق والتنافس فى هذه القدرة أهم من وفرة الثروة أو من ادخارها فى عرف المنتسبين الى الطبقة الفارغة ·· وكلما ازدادت النفقة وقلت الحاجة الى الشىء الذى تبذل فيه كان ذلك أدعى لغبطة المالك وحسد الناظرين اليه من نظرائه ومنافسيه ، وقد يكون التنافس أحيانا على قنية نفيسة لها قيمتها المعترف

بها بين جميع الطبقات من الأغنياء أو الفقراء ، كالحلى النادرة ، والحجارة الكريمة ، والجواهر المصنوعة . ولكن هذه المقتنيات أيضا ليست هى معيار القدرة على الانفاق عند أولئك المليونيين الفارغين ، بل يحلو لهؤلاء كثيرا أن يخلقوا النفاسة التى يقدرون على اقتنائها ، وان يعترفوا بقيم الأشياء التى يحبون أن ينفردوا بحيازتها ... ومن هنا تروج بضاعة الاحتيال باسم التحف الفنية ، والمدارس الغريبة ، والصور التى يعرضها المروجون من أعمال الأساتذة المبتدعين ، كل ما يلزم — لشيوع هذه البدع الفنية المستحدثة — أن ينجح سماسرتها فى ترويج أخبارها وأقاويل نقادها ، فليست نفاستها « الذوقية » مقياسا لها عند المتهافتين عليها ، ولكن نفاستها الشرائية هى مقياس الثورة ومقياس الذوق فى وقت واحد عند هؤلاء المليونيين الفارغين ، ومن ورائهم أتباعهم المبهورون ببريق ثروتهم ، الحاسدون لهم على غناهم وفراغهم ، الناظرون اليهم نظرة المعتقدين بقدوتهم ، ثقة بحظهم من البذخ والمظهر ، لا بحظهم من ذوق محاسن الجمال وفهم روائع الفنون .

* * *

ولم يلق الكتاب عند ظهوره خطوة حسنة بين علماء الاقتصاد والاجتماع المتخصصين لهذه المباحث فى معاهدها المقررة ، لأنه لم يكتب بالأسلوب العلمي ولم يدعم بسند من أسناد المذاهب المتبعة ، بل لعله فى أسلوبه الساخر ، وفكاهته اللاذعة ، وتمثيلاته « المسرحية » ، كان أقرب الى معارض الفن منه الى مباحث التحقيق ووقائع الاحصاء . ولكن الصور « الفنية » التى جمعها هذا المعرض لم تخل من حقائق التصوير الواضح ، ولم تحرم الكتاب اقبال المطلعين ، ثم اقبال العلماء الذين عجبوا لهذا الرواج فأحبوا أن يدرسوه ويعللوه ، حتى عنى بعضهم بمناقشته من الوجهة العلمية بعد ظهوره وانتشاره بنحو عشرين سنة ، ولما تهبط بعد ضجة الاعجاب به ، والنقمة عليه !

وثبت ، بعد مراجعة الواقع ، ومراجعة الرأى والنقد ، أن الكتـــاب ـ كما تقدم ـ لم يخل من صواب لا يخفى ولا يقبل المغالطة فى مظاهره الاجتماعية ·

ولكنه لم يثبت لهم هذا الصواب حتى ثبت معه أنه صواب من زاوية محدودة فى وقت محدود ·

فلم يبلغ من شأن أولئك المليونيين الفارغين أن يكونوا طبقة كاملة ، ولكنهم كانوا طائفة من طوائف طبقة لا يصدق عليها كلها ما يصدق على أولئك الفارغين الوادعين ·

ولم يبلغ من فتنة الانفاق لغير حاجة أن تكون أساسا من أسس الحياة الاقتصادية فى عصرها ولا فى سائر عصور التاريخ ، ولكنهـــا كانت فترة عارضة طرأت فترات من قبيلها فى مراحل التاريخ مرحلة بعد مرحلة ، كلما أصبح جمع الثروة ضربا من المغامرة تفاجىء أصحـابها بفيض من الربح الخارق لم يدخل لهم فى حساب ·

كلنا يذكر من عهود هذه المفـــاجآت ألوانا من السرف يخيـــل الى الناظرين اليه أن صاحب المال لايدرى كيف ينفق فى موضعه وفى غير موضعه ، وأنه مطالب بتبديده فى رهان تلحقه مغارمه ، ان لم ينجح فى التبديد قبل موعده المحدود ·

سمعنا من آبائنا أن المقاولين بقناة السويس على عهد اســـماعيل تدفقت عليهم الأرباح المفاجئة بغير حساب ، فابتدعوا صنفا من الصحاف تقدم على موائد الملاهى سموه « سلطة الجنيهات » ···· لأن الصحفة الواحدة كانت تجمع أحيانا عشرة جنيهات على كل منها نقشة دولة من الدول ، أو نقشات دولة واحدة فى عدة جنيهات ، وكانوا يقدمون هذه الصحاف لغوانى الملاهى كأنها فاتحة الطعام ·

وحضرنا نحن عهدا كان السرى فيه يحرق الورقة ذات الجنيهـــات العشرة ليشعل بها سيجارة بمليمات ، تعجيزا للمنافسين له على الانفاق فى ذلك المجال ·

وقديما كان نبلاء الرومان ينفقون على الصحفة الواحدة ألوف الدنانير ، لأنها كما قيل من ألسنة العصافير .

ولكن هذه الأزمنة كلها لم تكن أزمنة مستقرة على أساس من الحياة الاقتصادية الدائمة يخلق الطبقات الاجتماعية وتقام عليها قواعد المجتمعات .

فانما كانت ثروة المقاولين فى قناة السويس من ملايين القروض بغير حساب ، وملايين الأجور المهضومة من حقوق الفلاحين المسخرين .

وانما كانت ثروة السجائر المشعلة بأوراق المال بعض مكاسب النفقة على الخزان وأمثاله من المشروعات العامة ، وقد أنفقت على بنائها الملايين وضاع فى الرشوة وتقدير الأسعار أضعاف تلك الملايين .

وانما كانت ثروة الرومان الأقدمين التى أنفقت على صحاف الموائد من ألسنة العصافير وأشباهها طوفانا من أرباح المتاجر والمستعمرات ، بعد أن وسعت دولة الرومان غاية ما انتهت اليه بين تخوم المشرق والمغرب ، وتلقت من خيراتها فوق الغاية من حسبان الحاسبين وجزاف المجازفين .

والطائفة الفارغة التى وصفها « فبلن » انما كانت مفاجأة من مفاجآت الصناعة الكبرى فى ابان ازدهارها ، ووفرة خاماتها ، وقلة تكاليفها ، وكثرة أرباحها ، وانحصارها فى قارتها على عهد العزلة بين العالمين الجديد والقديم .

ولم نعرف من أخبار الماضى أو الحاضر قط أن فترات هذا البذخ المزهو بالقدرة على الاسراف كانت طورا من أطوار التاريخ يتبع بعضها بعضا على حسب التطور فى أدوار الحياة الاقتصادية . فلم تكن فترة منها حلقة فى سلسلة منتظمة من الحلقات تسبقها حلقة التمهيد لها وتتلوها حلقة المضى فيها والاستمرار على ديدنها والزيادة فى مبالغاتها . بل يحدث ، كل مرة ، أن تمر الحقبة على عجل ويأتى بعدها « رد الفعل » ليصححها ويميل بالنفوس الى ازدرائها والعدول عنها ، وهكذا حدث بعد وفاة ڤبلن ، أو كاد يبدأ فى ابان حياته ، وأن يحمله على التراجع

بعض الشيء فى مباحثه الأخيرة ، وان كان قد أصر على بقاء تلك الحالة وصعوبة تبديلها ٠

ويرى الكاتب الاقتصادى رايت ملز Wright Mills أن النظرة الى الحياة الاجتماعية فى العالم الجديد من احدى زواياها كانت هى الخطة الغالبة على أقلام النقاد خلال الفترة التى ازدهرت فيها الصناعة الكبرى وسمحت بصعود تلك الطائفة من المليونيين الفارغين الى منازل القدرة على قمة الثروة ٠٠٠ وفى مقدمة « رايت » على احدى الطبعات الحديثة من كتاب ڤبلن يقول عن هذه الخطة الشائعة فى حينها : « ان مزاج الناقد الاجتماعى بين الأمريكيين ربما بلغ مفترق التحول على عهد ڤبلن ٠ فاختفى آخر جيل من طراز الأمريكى ، وخلفه الجيل الأول من طرازه الجديد فى شخص وليد النرويجيين المهاجرين ، أو شخص اليهودى النيويوركى معلم الأدب الانجليزى فى احدى الجامعات المتوسطة ، أو شخص الجنوبى المقبل الى نيويورك للاحتكاك بدنياها ، واتسم هذا الطراز بسمة الناقد الأمريكى الحق ان لم يكن قد اتسم بأنه هو الأمريكى مائة فى المائة ٠ »

وكل هذه الزوايا الخاصة كانت لڤبلن اطلالته الغربية منها ، فانحصرت نظرته خلال هذه الزوايا فى الطائفة المحدودة بتركيبها الاجتماعى وحقبتها الزمنية ، وساعده على ذلك أنها الطائفة التى كانت معروضة لجميع الأنظار باختيارها واجتهادها ، وأنها تعلن هذا « الهوس » ولا تخفيه لأنها تنوط به نجاحها وفخارها ، ولم تزل على هذا الهوس حتى انقضت فترة المغامرة وأرباحها وأعقبتها فترة الموازنة بين الجهود والأرباح وفترة المحاسبة على الأرباح التى كانت تجمع ـ كما تنفق ـ بغير حساب ٠

وقد نجح ڤبلن غاية النجاح والمقدور له حين يطلق البدعة التى خيل اليه أن بطلانها بعيد ، وأن تبديلها عسير ٠٠ فقد كان الشعور بآفة البذخ المسرف أكبر نجاح لصاحب الكتاب الذى نبه الأذهان اليه ، وكان

العدول عن تلك الآفة ختام النبوءة وبداءة الشـــك فى طبيعتها ومبلغ دوامها ٠

ويقول الأستاذ اريك لارابى فى الحوار التالى : « اننا جميعـا من أتباعه على الرغم منا ، وأن احدى عباراته عن الاستهلاك العلنى قد تشبع بها الوعى القومى حتى أصبحنا الآن نحاول جهـــدنا ألا نظهر النعمة على الاطلاق ٠٠ »

ويســـأله الأستاذ بريزون : « أتعنى أنه أصـــلحنا ؟ ! » ....

فيجيبه : اننا لم نصل الى الصلاح الكامل بعد ٠٠٠ ثم يتفق المحاورون على أن الخجل من الاسراف قد وجد ولما تحتجب بعـــد ظواهر الخجل من العجز عن النفقة ٠٠ الا أن الكتاب قد أسفر عن نتيجته ودل على نتائج البحوث الاجتماعية التى تخطىء مثل خطئه وتنظر من الزاوية مثـــل نظرته ، فعرف أبناء العصر فارقا بعيدا بين أطوار التاريخ المرسومـــة وبين عوارض العصور التى تبتدىء معها وتذهب بذهابها ٠

عباس محمود العقاد